مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

رؤية المكان والزّمان في تجربة الغربة والحنين في شعر ابن درّاج القسطلي

الدكتورة وفاء جمعة*
غصن كبابة**

(تاريخ الإيداع 17 / 2 / 2014. قبل للنشر في 14 / 5 / 2014)

□ ملخّص □

يحاول هذا البحث قراءة النص الدرّاجي لرصد تجربة الغربة والحنين فيه، إذ عكست قصيدة الغربة والحنين رؤية الشاعر للمكان والزّمان.

وقد أسهم المكان والزّمان في تنمية دلالة الغربة والحنين وصنع خصوصية التجربة كون تجربة الشاعر ابن درّاج في الغربة والحنين هي تجربة في مواجهة المكان والزّمان، فقد كان مكان الغربة منطلقاً لممارسة الحلم المتواصل الذي يؤكد العلاقة الحميمة التي تربط الشاعر بمكان الألفة. أمّا إحساس ابن درّاج بقوة التغيير التي مارسها عليه الزّمان جعل نفسه تغترب عن الزّمان الحاضر (الشيخوخة)، وتحنّ إلى الزّمان الماضي (الشباب).

الكلمات المفتاحية : المكان، الزّمان، الغربة، الحنين .

* مدرسة – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية .
** طالبة دراسات عليا (ماجستير) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

See the place and time in the experience of exile and nostalgia in the poetry of Ibn Darrag Alkstala

Dr. Wafaa Goumaa*
Ghousen Kababah **

(Received 17 / 2 / 2014. Accepted 14 / 5 / 2014)

□ ABSTRACT □

This research aims to study The Darraji Poem, to monitor the experience of exile and nostalgia in it, as the poem reflected the alienation and longing to see the poet of place and time.

The shares of space and time in the development of a sign of alienation and longing and making the privacy of the experiment the fact that the experience of the poet Ibn Darrag in exile, and nostalgia is the experience in the face of time and place; was a place of exile starting point for the exercise of the dream continued, which emphasizes the close relationship that binds the poet place of familiarity. Ibn Darrag sense strongly change exerted by the time he made himself ngterb for the present time (old- aging), and yearns for the past decade (the youth).

Key Words: The place, Time, Alienation, Nostalgia .

*Assistant Professor ,Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
**Postgraduate Student, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة :

إنّ شعر ابن درّاج يغلب عليه طابع الإحساس بالغربة والحنين وأثر المكان والزّمان فيه، ومع ذلك لم يُنظر إليه من هذه الوجهة، ولم يُدرس من هذا الجانب بما فيه الكفاية، ولم يلتفت الدارسون إلى شكوى هذا الشاعر من غربته وتفجعه على وطنه وشبابه المنقضي، ولعلّ الدكتورة فاطمة طحطح هي التي تعرضت إلى هذا الجانب في شعره ضمن دراسة شاملة لها عن غرض الغربة والحنين لدى العديد من الشعراء الأندلسيين تحت عنوان " الغربة والحنين في الشعر الأندلسي " وفيها تحدثت عن غربة ابن درّاج المكانية دون التعمّق في ذلك ودون الالتفات إلى غربته الزّمانية .

ومن هنا جاءت أهمية اختياري لهذا البحث الذي يشمل بالدراسة غربة ابن درّاج المكانية والزّمانية ويُبرز هذا الجانب الوجداني الخالص ذا الطابع الإنساني في شعره بشيء من التفصيل، مع إظهار تجليات الزّمان في هذه التجربة.

كما يهدف البحث أيضاً إلى الاقتراب من نص الغربة والحنين عند " ابن درّاج " وقراءة فنياته وجمالياته.

ويستبعد هذا البحث الخوض في ماهية المكان والزّمان في الدراسات الفلسفية والأدبية، إذ أفاضت كثيراً مجموعة من الدراسات في أصول الزّمان والمكان، والمباحث الفلسفية التي اهتمت بهما منذ أفلاطون مروراً بالفلاسفة العرب.

المكان في اللغة يعني الموضِع، والجمع أمكنة، وأماكن جمع الجمع [1] .

والمكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث [2] . وهو تعريف واضح ومحدد لطبيعة المكان، فالمكان في الأدب تشكيل رؤيوي وليس مساحة ذات أبعاد هندسية، ولهذا يصبح المكان (جزءاً من التجربة الذاتية بعد أن يفقد صفاته الواقعية ارتباطاً باللحظة النفسية...) [3].

الزّمان والزّمن كلمتان مترادفتان من حيث الدلالة والمعنى، فالزّمان والزّمن اسم لقليل الوقت وكثيره، والزّمان والزّمن العصْرُ، والجمع أزمُن وأزمان وأزْمِنة [4] .

ولاشك أن مصطلحي المكان والزمان يعدّان من المفاهيم الفلسفية التي لازمت الفكر الفلسفي في تاريخه الطويل، كما أنه لاشك في أن السؤال عن حقيقتهما قديم قدم التفلسف وقدم الإنسان نفسه .(والمكان والزّمان ليسا مستقلين عن بعضهما بعضاً، لأنّ العلاقات المكانية، والزّمانية مشتقة من التفاعلات المادية بين الظواهر، والأحداث الفيزيائية)[5].

أهمية البحث وأهدافه :

يهدف البحث إلى الوقوف على تجربة الغربة والحنين في شعر ابن درّاج، التي عانى منها_ فعلاً_ على مستوى الواقع، فقد أفرزت هذه التجربة نوعين من الغربة: غربة مكانية حنّ فيها ابن درّاج إلى مكان استقراره وأمنه، وغربة زمانية حنّ فيها إلى الزّمان الماضي، زمن الصبا والشباب.

وهي تجربة شعورية وواقعية صادقة عاشها ابن درّاج على المستوى الحياتي وأدّت إليها ظروف موضوعية مرتبطة بعصره، وأخرى ذاتية ميزت شخصيته ونفسيته.

---

[1] –ابن منظور، لسان العرب. (بيروت، دار صادر، ط1،2004) مادة مكن، مج13 .

[2] – سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية. (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1984)76.

[3] – إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا. (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1، 2001)174.

[4] – ابن منظور، لسان العرب.(بيروت، دار صادر، ط1، 2004) مادة زمن، مج 13 .

[5] – مجموعة مؤلفين، المعجم الفلسفي المختصر، تر: توفيق سلوم. (موسكو، دار التقدم، ط1 ، 1986)475.

منهجية البحث :

يدرس البحث مجموعة نصوص لابن درّاج دراسة تحليلية، لا تلتزم منهجاً محدداً بل تحاول الاستنارة بإضاءات من مناهج الدرس الأدبي، أملاً في الوصول إلى قراءة نصوص الغربة قراءة دقيقة، وتأويل معانيه تأويلاً سليماً يخدم الغاية المرجوة من البحث.

الغربة المكانية والحنين إلى المكان (قرطبة) :

إنّ أماكن الألفة تدرج دائماً تحتها أماكن التذكر وذلك ما عبرت الدراسات الفلسفية عنه (أن أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، والتي استمتعنا بها ورغبنا فيها وتآلفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك)[6] .ومعايشة ابن درّاج لقرطبة ثم رحيله عنها بسبب الفتنة لم يؤد إلى انقطاع الذكرى بينه وبينها، ولم يؤد به أيضاً إلى نسيانها، لأنه ببساطة مرتبط بكيانها وبأعماقها تمنحه الأمن والحماية.

وتظهر غربة ابن درّاج بشكل واضح في حنينه وقت الفتنة إلى عهده الغابر (قرطبة) بجوار الأمير المنصور العامري، فصفحة العهد العامري، وإن كانت قد طويت من سجل التاريخ الأندلسي أمام الشاعر إلا أنها ظلّت ماثلة في وجدانه تتراءى له كلما يمّم وجهه شطر ملك جديد، لعله يحظى بشيء من نعيم ذلك الفردوس المفقود، ومن الطبيعي أن يعاني ابن درّاج من الغربة النفسية وهو بعيد عن قرطبة، فقد ابتعد عنها ووجد نفسه في مكان غير مكانه، حيث كان يشعر بهوة تفصل بينه وبينها، وذلك أنّ الزّمن لا يمكن أن يتطور وينمو إلا في المكان، ومادام زمن الشاعر موجوداً ومكانه ضائعاً مفقوداً، فإنه يبحث عنه باستمرار على اختلاف طرائق البحث، فإذا كانت (قرطبة) بعيدة عن الشاعر مكانياً، فهي تظل قريبة منه نفسياً، بل إنّ كل بقعة منها تشكل بالنسبة إليه محطات تذكارية تخلدها ذاته عبر الاستدعاء؛ الذي هو(استرجاع الذكريات مع ما يصاحبها من ظروف المكان والزّمان)[7]، وسيحاول البحث فيما يأتي إضاءة هذه الأفكار، يقول ابن درّاج في إحدى قصائده مؤكداً أنّ قرطبة العامرية استوطنت شغاف قلبه، وثوت بين ضلوعه وطناً لا يبلى، وأنه باقٍ على عهد الوفاء لها، مهما شرّقت أو غرّبت به المسافات، ومهما نالت منه نوائب الزّمن ومصائبه،– من البسيط–[8].

يا معْهَداً لم يُضِعْ عَهْـدَ الوفاءِ لهُ ... مُكَسَّفُ النُّور عافي القَدْرِ ضائِعُـهُ
ولا ثنَـى عَبرَاتِي عن تَذَكّـرِهِ ... دَهْرٌ تـقارَعُ في صدري قوارِعُـهُ
حَسبي ضُلُوعٌ ثَوَتْ فيها مصائِبُـهُ ... ومُقْلَةٌ رَبَعَتْ فيـها مرابِعُـهُ
سَقاكَ مثْلُ الذي عَفَّى رُبَـاكَ عسى ... يُنْبِيكَ كيفَ غَريبُ الرَّحْلِ شاسعُهُ..
للـهِ من وطنٍ قَـلبِي لـهُ وطَنٌ ... يَبْلى وأبْلى وما تَبْلـى فجائِعُهُ...
لا يسأمُ الدّهْـرُ من شوقٍ يُطالِعُني ... مِنهُ ومـن زَفْرةٍ مِنِّي تُطالِعُهُ
إنْ تُسْعِدِ الـيومَ أشـجانِي نوائِحُهُ ... فَكمْ وكمْ ساعدتْ شَجْوِي سَوَاجِعُهُ

---

[6] –غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا.(بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط2، 1984)40.

[7] – يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام. (القاهرة: دار المعارف، ط1، 1998)248.

[8] – ابن درّاج القسطلي، ديوان ابن درّاج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي. (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1961)138.

إنّ الحنين ليتدفق عارماً إلى الوطن الذي لا ينسى رغم قوارع الدّهر ذلك الوطن الذي يثوي بين ضلوعه شاكياً من تباريحه التي شغفت قلبه، متعجباً من ذلك الوطن الذي استوطنه شغاف قلبه.

فمفهوم الوطن مختلف في اللفظة الثانية للتكرار ويحيلنا على علاقة حميمة أبدية بين الشاعر وهذا المسمى الجميل، القريب، المحبب، رغم أنه يذكره فتتفجر في نفسه ينابيع من الأسى والألم من الضيم الذي أُكره عليه في ربوعه، وتكاد تذهب نفسه حسرات على فراقه، ويعزي نفسه– على غربته–بما يجيش في صدره من الوفاء له حيث يحمله بين جنبيه، في إيقاع صوتي دلالي لافت يصبح معه الشاعر وطناً، والوطن هو الشاعر. إنّها صورة رائعة يبلى الوطن وما يبلى حبه في قلبه. فهو إذ فقد قرطبة المكان، لكن قرطبة العز والأمجاد والذكريات الجميلة لبثت مقيمة في قلبه ترافقه أنّى ارتحل، حتى غدا قلبه مستقراً لها، بل إنّ صبابته بها ظلّت تضرم نار الحنين في فؤاده كلما شطّ مزاره عنها أكثر، فتنهمر دموعه غزيرة مدرارة لما أصابه بعد أن فارقها. وهو يدعو للأيام التي مضت، والتي لقي فيها سعادته وهناءه. إنّ شغفه بالماضي جعله يدعو لقرطبة بالخير العميم معلناً انتماءه للماضي وغربته عن الحاضر/ مكان الغربة/. فالمكان ليس مجرد وعاء خارجي محدد بل إنّ قيمته ترتبط بمنزلته عند الشاعر، حيث لا يمكن تجاهل الأبعاد النفسية والإنسانية التي يحملها ذلك المكان، لأنّ (الفضاء المادي يغطيه في العادة فضاء نفسي يحيل على ما هو خصوصي " القلب أو الوعي")[9] ، كما أنّ الأمكنة (لا تقاس بمساحتها ولا بعدد سكانها بل بجاذبيتها الإنسانية)[10]

إنّ قرطبة هي المكان الذي يميل إليه الشاعر وينجذب نحوه، فهو مكان الألفة له، وينفر دائماً من مكان الغربة الذي يتواجد به لأنّه يشكل بالنسبة إليه قلقاً دائماً لا يفارقه، ولذلك نراه عاجزاً عن التكيف مع الواقع المكاني الرّاهن بكل مرارته. يقول في مطلع قصيدة يمدح فيها منذر بن يحيى صاحب سرقسطة – من الكامل–[11] :

قُلْ للرَّبيعِ اسْحَبْ مُلاءَ سحائِبِ ... فاجْرُرْ ذُيولَكَ في مَجَرِّ ذَوَائِبِي
لا تُكْدِيَنَّ ومن وَرَائِكَ أدْمُعِي ... مَدَداً إليكَ بِفَيْضِ دَمْعٍ ساكِبِ
وصَبابةٌ أنفاسُهَا لَكَ أُسْوَةٌ ... إنْ ضاقَ ذَرعُكَ بالغَمامِ الصَّائِبِ
وامزِجْ بِطيبِ تحيَّتي غَدِقَ الحَيَا ... فاجْعَلهُ سَقْيَ أحِبتّي وحبائِبِي
عهداً كعَهْدِكَ من عِهادٍ طَالما ... كَسَتِ البُرُودَ معاهِدِي ومَلاعِبِي
واجْنَحْ لِقُرطُبةٍ فَعانِقْ تُرْبَهَا ... عنِّي بِمِثْلِ جوانِحِي وتَرائِبِي
حيثُ اسْتكانَتْ للعَفَاءِ مَنازِلِي ... وهَوَتْ بأفلاذِ الفؤادِ نَجَائِبِي
ذُلُلاً تعَسَّفْنَ الدُّجى بأذِلَّةٍ ... ولواغباً جُبْنَ الفَلا بِلَوَاغِبِ
وكواكِبٌ ناءَتْ بِغُرْبَتِهَا النَّوى ... فَقَضتْ مَدَامِعُها بِنَوْءِ الغارِبِ
من كُلِّ مفْجُوعٍ بتَرْحَةِ راحِلٍ ... لم يُسْلِهِ طَمَعٌ بِفَرْحَةِ آيِبِ

في الأبيات السابقة يستبدّ الحنين بابن درّاج إلى قرطبة، وتلحّ عليه ذكرى أيامه الجميلة فيها، وما آلت إليه المدينة التي طحنتها النوائب، واعتورتها المصائب، بعد شموخها وعزّها. فنراه يعود بالزّمن إلى الماضي منطلقاً من

---

[9] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي. (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2،2009)52 .

[10]– عز الدين المناصرة، شاعرية التاريخ والأمكنة. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ط1، 2000)295 .

[11]– ابن درّاج القسطلي، ديوان ابن درّاج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي. (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1961)167.

الحاضر، ليبتعد عن الزّمن الحقيقي، ويعيش فترة في ظلَ الماضي الذي يتمثّل أمامه وكأنّه حاضر، فالأحداث كلها حدثت في الماضي(استكانت– هوت– تعسفْنَ– ناءت– قضت)، هذا الماضي الذي يعيش فيه الشاعر وكأنه يلغي حاضره(مكان الغربة) من الوجود. فيتخذ من الربيع مطية له في رحلة عبر الذاكرة يتنشّق فيها عبير الماضي، وفي هذه الرحلة يطلب من الربيع أن يمزج أشواق حنينه بخصب الطبيعة وجودها، ليجعل منها سقيا لأحبائه الذين أمضى معهم ربيع أيامه في قرطبة. ويتمثل حنينه إلى تلك الأيام السالفة في طلبه من الربيع أن يعانق تراب قرطبة بدلاً منه، لأنّه متشوق إليه. وتنتهي الرحلة سريعاً ليصحو الشاعر على واقع مرير مفعم بالأسى. ف (الحنين إلى الماضي محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع " الحاضر" . فحين يشعر المرء أنّ حياته قد قست عليه فإنّه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي)[12].

ونلاحظ تكرار ابن درّاج للجذر (عهد) أربع مرات في البيت الخامس ليبين مدى حنين الشاعر لماضيه في قرطبة وتعلقه به، في سياق شعوري يبلغ درجة المأساة حين يقارن الشاعر ذلك الماضي السعيد بواقعه المؤلم، فالشاعر وهو بعيد عن قرطبة، كان يجد في – مكان الغربة– الذي يقيم فيه سجناً يحاصره ويحدّ من حريته وتمتّعه بالأمن والاستقرار والهناء فيشعر بالغربة والعزلة، فالأمكنة التي كان ينتقل إليها ليس لها طابع الألفة التي وجدها في قرطبة على الرغم من أنّه عندما ارتحل إلى سرقسطة أتيح له فيها جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة؛ حيث قضى في بلاط منذر بن يحيى التجيبي، وابنه يحيى نحو عشر سنوات تمتع خلالها بالهدوء والنعمة، (وقد تغنّى ابن درّاج الذي وفد على سرقسطة بأبهة ذلك الملك المنذر بن يحيى التجيبي، ومدحه، فآواه وأكرمه وبقي عنده حتى بعد وفاته، وعندما تولّى يحيى بن المنذر حكم سرقسطة، ظلّ ابن درّاج يتمتّع بنفس المنزلة والرعاية التي كان قد حظي بها أيام أبيه المنذر)[13].

إلّا أنّه على الرغم من حياة السعد التي قضاها في سرقسطة، وعلى الرغم من مباهجها ومفاتنها لم تجعله يعيش حاضراً مزدهراً، كمثل ذلك العهد الغابر في قرطبة الذي بات يعادل الفردوس المفقود له، وكان يستبدّ به– ولاسيما في فترة مقامه الأولى في سرقسطة– شعور الحنين إلى قرطبة وأيامه الذاهبة فيها، فظلّ يسبح في فلك ذلك العهد الغابر، قائلاً – من الكامل– [14]:

فَهل أنتَ يا زمنَ الرَّبيعِ مُبَلِّغٌ ... بالمَغْرِبَيْنِ أحِبَّتِي وأقَارِبِي
أنَّ الرَّبيعَ لَدَيَّ شِيمةُ قَاطِنٍ ... وحَيا الغمامِ عَلَيَّ دِيمَةُ دَائِبِ
من بعدِ ما غَمَّ الصَّبَاحُ لِناظِري ... واشْتَفَّ مِنِّي البَحْرُ جَرْعَةَ شَارِبِ..
نِعَمٌ تكاد تَرُدُّ أيَّامَ الصِّبَا ... وتُعيدُ أزْمَانَ النَّعيمِ الذَّاهِبِ
أيَّامَ ألقى الصُّبْحَ تِرْبَ كواكِبٍ ... أدَباً وأُحْيِي اللَّيْلَ خِلْبَ كواعِبِ
والمَكْرُمَاتُ منازِلِي ومشاهِدِي ... والمُقْرِبَاتُ مراكِبِي ومَراقِبِي
إذْ أنْتَ يا زَمَنَ الرَّبيعِ مُخَيِّمٌ ... في ساحِلِي ومُغَيِّمٌ من جانِبِي
عَبِقُ الرَّوائِحِ من نَثِيرِ غَدائِرِي ... غَدِقُ السَّحَائِبِ من فُضُولِ مَشارِبِي
وتَرُوحُ مُغْتَبِقاً شَمُولَ شَمَائِلِي ... وتعُودُ مُصْطَبِحاً ضَرِيبَ ضَرَائِبِي

---

[12] –عبد الرزاق خشروم، الغربة في الشعر الجاهلي.(دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1998)241.

[13]–الأمير شكيب أرسلان، الحلل الأندلسية في الأخبار والآثار الأندلسية. (مصر: المطبعة الرحمانية، ط1، 1936)124،ج2.

[14]– ابن درّاج القسطلي، ديوان ابن درّاج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي. (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1961)169–170.

تَغْدُو فَتَسْتَمْلِي بديعَ مَحاسِنِي وتَرُوحُ تَسْتَقْرِي نَفيسَ غَرائِبِي
وتبيتُ تنشُرُ في الأباطِحِ والرُّبَى زهْراً يُخَبِّرُ عَنْكَ أنَّكَ كاتِبِي
مِمَّا تَرِفُّ بِهِ رِياضُ حدائِقِي ويُفِيضُ جَوهَرَهُ عُبَابَ غَوارِبِي

إنّها أبيات تخفي تحت رماد السرور الطارئ جمار الحنين إلى قرطبة التي عشقها وأحبها، فهو إذن وإن اعترف بأنّ ربيع سرقسطة قد عوّضه شيئاً مما خسره في فردوسه المفقود، إلا أنّه يقرّ بأنها لن تستطيع أن تحلّ محل جنته الوارفة الظلال(قرطبة العامرية).

يبدو لنا أنّه في أعماق ذات الشاعر نستطيع سماع النداء الحميم للمكان الأليف عنده على أنّه أكثر من مجرد صدى من العالم الخارجي، فحبّ الشاعر له ينفي عنه الانغلاق ويجعل منه فضاء للحلم والذاكرة، هذا الحلم الذي يتعمّق إلى حدّ أنّ المكان البعيد يغدو منفتحاً أمام الشاعر. إنّنا نشعر أنّ ابن درّاج يعيش حلم يقظة، أو يصف حلماً رآه، إذ تغدو قرطبة التي تنفتح على ماضي الشاعر، منطقة يرتبط بها الخيال بالذاكرة، كل منهما يعمّق الآخر، فتختلج بداخل الشاعر الأحاسيس والمشاعر ويسترسل في الحلم والتأمل، فينفتح هذا الفضاء عبر الخيالات والتصورات على الآفاق الواسعة التي تعطيه أبعاده الحية،(فأحلام اليقظة عندما تسيطر على إنسان متأمل تغيم التفاصيل وتشحب الصور وتمضي الساعات دون أن نلحظها ويمتد المكان لمالا نهاية)[15] .

وهذا ما نلحظه في خطاب ابن درّاج، حيث ينسلّ الشاعر لا شعورياً من الحاضر إلى الماضي الجميل، ويرحل عبر ذاكرته وأحلامه إلى(قرطبة) فيستحضر تنعمه في أحضانها حيث كان الربيع مخيماً في ساحله والطبيعة تحفّه بالنعيم والسرور.

إنّ طبيعة المكان في الخطاب الشعري لابن درّاج، أحادية مرتكزة في مكان واحد هو مكان الغربة الذي قال فيه الشاعر قصائده في الشوق والحنين إلى مكان الألفة.

ومن هنا فالتقاطب الذي يطرحه الخطاب الشعري يتحقق في المستوى الذهني للشاعر بالدرجة الأولى وهو ما يؤكد الطابع النفسي للمكان في الخطاب الشعري وبالتالي فـ (قرطبة) هي مكان واقعي يستمد واقعيته من التاريخ ولكنه على المستوى الشعري يظل فضاء مجازياً وحسب، أي أنّ الشاعر يرسمه ويتخيله من منطلق مكان الغربة الذي هو المكان الوقعي وذلك عبر قناة الذاكرة والحلم وليس عبر المشاهدة بالرؤية.

إنّ ابن درّاج عارف بتفصيل قرطبة؛ و كلما كان الشاعر عارفاً بتفاصيل مكان الألفة، كلما ازداد شقاؤه ومعاناته في المكان الثاني وهذا ما يكشف عن تقاطب بين مكانين متعارضين يتجاذبان النص الحنيني المكاني هما (مكان الألفة– مكان الغربة).

وهكذا على محور ثنائية الألفة / الغربة يتشكل خطاب الغربة والحنين المكاني وينمو متوتراً يتجاذبه قطبان: الألفة الحلم والغربة الواقع. ومن خلال هذا التقاطب تظهر لنا رؤية التجاذب النفسي بين المكانين؛ التي تسيطر على ذات الشاعر، حيث ترحل هذه الأخيرة عاطفياً ونفسياً إلى مكان الألفة ثم سرعان ما تصحو من حلمها على واقعها الحسي الذي هو مكان الغربة، ويمكن أن نمثل هذا الشعور التجاذبي أو حركة ثنائية مكان الغربة ومكان الألفة في نصوص الغربة المكانية كما يأتي:

---

[15] **غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا.(بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط2، 1984)179.**

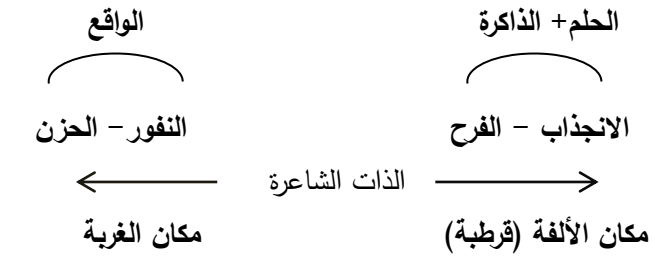

إذ يمثل الطرف الأول من المعادلة بالنسبة للشاعر الذاكرة والحلم، بينما يمثّل الطرف الثاني الواقع الحزين. ويأخذ المكان الحلم (الألفة)– قرطبة، صورة الحلم الخيالي الذي يهيم به الشاعر، ويأخذ المكان الواقع (الغربة) صورة الواقع المرّ الذي يصنع عذاب الشاعر وإرادته في الخلاص منه.

إنّنا نجد أنّ ابن درّاج اعتمد على مشاهد الجمال في ذكره لموطن استقراره في قرطبة، وهي ذكريات لا تفارق خياله ووجدانه، ولم تخلُ صور الحنين عنده من إظهار هذه الطبيعة الجميلة المؤثرة في النفوس. وشعوره بالغربة لا يقل عن شوقه وحنينه إلى بلده، ولكنه يحمل بين جوانحه مرارة الأسى، والحسرة على ما يحسّه ويعيشه؛ لأنّ الشاعر عاش حياة عزيزة في ظلّ البلاط العامري، فأحسّ بالأمن والأمان، وفجأة تغيّر الوضع من أمن إلى قلق، ومن سعادة إلى حزن، فكان من الطبيعي أن يظهر هذا الشعور الحاد بالغربة.

الغربة الزّمانية والحنين إلى زمان (الصبا، الشباب) :

إنّ الإحساس بالزّمان يمثّل بعداً ذاتياً فردياً لدى الإنسان، غير أنّ الشاعر يختلف في الدرجة أحياناً، وفي النوع أحياناً أخرى، عن غيره من الناس في تحسسه للزّمان، وإذا كان الزّمان عند الإنسان العادي يمثّل حركة ينتقل فيها من ماضٍ إلى حاضر، فإنّ الشاعر يتجاوز هذه الحركة الأفقية إلى دلالة ذاتية، أي العمل على إحداث الفعل في الزّمان وموقفه إزاءه، وهذا يعني أنّ الزّمان يتحوّل إلى بعد ذاتي يعيد الشاعر صنعه أو خلقه من جديد، وسيحاول البحث فيما يأتي إضاءة هذه الأفكار، يقول ابن درّاج – من الكامل ـ [16] :

أنْضَيْتُ خَيْلِي فـي الهـوى ورِكابِي ... وعَمَرْتُ كَـأْسَ صِـباً بِكـأسِ نِصابِ
وعُنِيتُ مُـغْرىً بـالغوانـي والصِّبـا ... واللّـهو واللـذّاتُ قـدْ تُـغْرى بـي
فـي غمرةٍ لا تنقضي نَشَواتُهـا ... مـن صَـرْفِ كـأسٍ أو جُفونِ كَـعَابِ
أيّـامَ لا نَرتـاعُ من صَرْفِ النَّوى ... أمـناً ولا نُـصْغِي لِـنَعْـبِ غُـرَابِ
أيّامَ وجْـهُ الدَّهـر نحـوي مُشْـرِقٌ ... ومحاسـنُ الدُّنيـا بغيْرِ نِـقَـابِ
ولقدْ أضاء الشَّيْبُ لي سنَنَ الهُدَى ... فَثَنَى سِنِي دَنَـي علـى الأعْقَابِ

الفكرة الأساسية التي يتمحور حولها الخطاب الشعري هي التحوّل، تحوّل الشاعر من زمان الشباب إلى زمان الشيخوخة وهي الحقيقة المؤلمة التي كاشفت الذات نفسها بها وقد تحوّلت من زمن لا تتقبّله، إلى زمن ينذر بالأفول والنهاية القريبة والفناء.

فكل بيت من الأبيات السابقة يكشف عن مقت ابن درّاج المشيب و الشوق إلى الشباب وإن كان ذلك لا يظهر للعيان ولكنه مقصود بصفة أو بأخرى في كل معنى وفي كل بيت.

16- ابن درّاج القسطلي، ديوان ابن درّاج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي. (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1961)15، 16.

ابن درّاج يشكو قدوم الشيب وذهاب رونق الشباب، وتذمر من انقضاء عهد العزّ والسعد واللهو الذي ارتبط عنده بعهد الشبيبة، ولذا فهو يلجأ إلى وسيلة دفاعية وهي محاولة انفصاله عن واقعه الرّاهن، بما فيه من شيب، والعودة إلى الماضي والاحتماء ببهائه وما فيه من عنفوان وشباب وذكريات جميلة، الماضي بوصفه عهد الشباب وما فيه من بطولة وقدرة وحيوية، ولينأى بنفسه عن ثقل الحاضر، فهو يتذكر تلك الأيام التي قضاها في السير وراء أهوائه وملذاته، (لقد استنجد الشاعر بالزّمن الماضوي لكونه استراتيجية فاعلة يواجه بها واقعه في لحظة الضعف والعجز أمام مفردة الزّمن/ الشيب. فهو يحاول جاهداً التعلل بثقافة الماضي ليغيّب نفسه عن مشهد الحاضر، ويتماهى كذلك مع ذلك الماضي لكي يتناسى حالة القطيعة التي أحدثتها تحولات الزّمن)[17].

لجوء ابن درّاج إلى الماضي هو نوع من الإيهام للذات بالقدرة على مواجهة الزّمن، ولكنه لا يلبث أن يقر بعجزه واستلاب إرادته أمام الزّمن وهذا ما تظهره كلمة (أيام) التي تكررت مرتين، لتؤكّد حنين الشاعر إلى أيام الصبا، فهو يعلم أن تلك الأيام لن تعود ولن تتكرر، وهذا الاندفاع نحو الأشياء الراحلة إنّما يبلور رغبته في الخروج من دائرة اللحظة الحاضرة والتخلص من ضغطها وعبئها، والسعي إلى خلق زمن خاص به يتمثّل في العودة إلى اللحظة الماضية لأنّ(طبيعة الموقف الذاتي المفعم بشهوة الحياة، يفرض على الشاعر الهروب من فعل الزّمن التدميري إلى عالم الذكريات أو عالم الحلم وما يحمل بين طياته من فرح أو لذة، ويكون هذا الهروب عادة من الكبر والعجز والضعف. إنّه الهروب من اليأس والموت إلى الحيوية والانطلاق)[18].

في المستوى اللغوي للنص ما يشير إلى هذا، وذلك من خلال بروز (الأنا) المنفردة للذات الشاعرة، إذ تبدو هذه (الأنا) محور الاهتمام، ومركز الرؤية. وقد وزع الشاعر أناه بين ضميرين هما، ياء المتكلم(خيلي، ركابي، ددني)، وتاء الفاعل(أنضيت، عمرت، عنيت)، هذه الحركة الإيهامية، وتضخيم الأنا هي ضرب من الإحساس الداخلي بالنقص في امتلاك هذه الأنا، وبتعبير آخر هي تعبير عن ضمور الأنا، وتآكلها تحت وطأة امتداد العمر، وثقل الشيب.

نلاحظ أنّ الشاعر لم يعاتب الزّمان على فعله، ولكنه أظهره قوة مطلقة، ما يؤكد التوجع العميق الذي استولى على نفسه فكشف عن معرفة قطعية بأنّ الزّمان مسؤول عن فقدان الشباب، (حقاً إنّ الزّمان ينتزع منّا رويداً رويداً كل ما سبق أن منحنا إياه، ولكن لتجربة الشيخوخة الأليمة كثيراً ما تشعر الذات البشرية في وحدة وقسوة ومرارة بأنّ هيهات للمفقود أن يعود)[19].

ويقول في موضع آخر– من الطويل– [20] :

أضَاء لهَا فَجْرُ النُّهى فْنَهاها ... عَن الدَّنَفِ المُضْنى بِحَرِّ هَوَاها

وَضَلَّلَها صُبْحٌ جَلا ليلةَ الدُّجى ... وَقَدْ كانَ يَهْدِيها إليَّ دُجَاها

وَيَشْفَعُ لي منْها إلى الوصلِ مَفْرِقٌ ... يُهِلُّ إليهِ حَلْيُها وَحُلاها

فيَا للشَّبابِ الغَضِّ أنْهَجَ بُرْدُهُ ... ويا لرياضِ اللَّهو جَفَّ سَفَاها

وَمَا هي إلَّا الشَّمْسُ حَلَّتْ بِمفْرَقي ... فأعْشَى عُيُونَ الغَانياتِ سَنَاها

---

[17] د. يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي.(بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،2004)175.

[18]–نور الدين سد، الشعرية العربية– دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية.(الجزائر: المطبوعات الجامعية ،د.ط، 2008)320 .

[19]– د. زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان. (القاهرة: مكتبة مصر، ط1،1959)102.

[20]–ابن درّاج القسطلي، ديوان ابن درّاج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي. (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ط1، 1961)10،11.

وَعَيْنُ الصِّبا عَارَ المَشِيبُ سَوَادَها فعَنْ أيِّ عَيْنٍ بَعْدَ تِلكَ أراهـا؟
سلامٌ على شَرخِ الشَّبابِ مُرَدَّدٌ وآهاً لِوصْلِ الغانيـاتِ وآها

في الأبيات السابقة يضعنا ابن درّاج أمام مقارنة بين مرحلتين زمنيتين يعيشهما الإنسان: مرحلة أولى هي زمان الشباب، ومرحلة ثانية هي زمان الشيخوخة، وهي مقارنة توثّق إحساسه بمرور الزّمان، وإدراكه التغيير الذي يحلّ بالإنسان حين تدور عليه دائرة الزّمان.

نستطيع أن نستشف من أبيات ابن درّاج السابقة حزناً دفيناً سكن أغوار قلب الشاعر لفقد شبابه، فهو يندب شبابه، فالملاحظ في هذه الأبيات تكرار الشاعر حروف المد والهاء على نحو واسع، وهو تكرار أضفى على النص إيقاعاً موسيقياً متناغماً يوحي بالبؤس والندبة والتفجّع؛ فكثرة حروف اللين، ولا سيما الألف، أدّت إلى إبطاء الإيقاع الموسيقي للنص، كأنها آهات طويلة توحي بثقل الزّمان الذي يقاسيه الشاعر.

لقد ذبلت نظرته فَعَدِم أسباب اللهو والطرب، وحيل بينه وبينهما، فالشيب نفّر الغواني منه كالشمس يعشي ضوؤها الناظرين إليها، لذا فهو لا يكف عن ترديد التحية إلى هذا العزيز الذي فارقه، وفارقت معه بهجة الحياة و نضرتها، وانقشعت ظلال أيام اللهو.

لقد كان الشّيب أولى بوادر الشيخوخة التي أنذرت الشاعر بفراق الماضي، وهدّدت ذاته بالفناء المحتوم، وكانت سبباً في نفرة الغواني، إذ(نجد أن من خطّ المشيب رأسه لا يفتأ يتحسّر على الشباب، ويذكر أيامه، ويتمنى عودته، ويحسد الشباب على ما يتفجرون به من قوة، كما أنّه يكره المشيب، فهو لا يفتأ يذكره بسوء لأنّه يرتبط في وجدانه وأمور عدّة كلها بغيض إلى نفسه؛ فهو يقطع عليه طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب، وهو يفرض عليه قيوداً في السلوك، و وقاراً هو أزهد الناس فيه، كذلك فإن المشيب يرتبط في وعيه وقرب دنو الأجل فهو يرى فيه نذير المنية)[21].

ويتخذ ابن درّاج من التضاد جسراً للتعبير عن عالمه النفسي؛ إذ طالما كان الصبح ومازال رمز الهداية والإرشاد، والليل نقيضه[ضللها صبح، يهديها جاها]، فدلالة الألوان تبدو مغايرة للمألوف، وهذا ما نجده في قاموس الشعراء المحبين حيث كانوا يتّخذون الليل رمزاً للأمن على عكس الصبح الذي يبدو كالشبح الذي ينغص على المحبين ويهدّد بهجة أنسهم، فكان الصبح يمثّل نذير شؤم عند المحبين، وبذا يحق له أن يتهم الصبح بالضّلال. والإنسان عندما يتقدّم في العمر يظل بين الماضي والحاضر تتنازعه آلام كثيرة فهو بين ندم وحسرة وخوف من المجهول؛ فذهاب الشباب واقترانه بالماضي يعني عدم قدرة الشاعر على امتلاكه من جديد، وهذا ما تعبّر عنه عبارات الشاعر(يا للشباب الغض)، و(يا لرياضِ اللّهو)، فهي تفضح ما يعتمل في نفسه وأغوارها البعيدة من تفجّع ولهفة على الشّباب، كما تكشف معاناة الذات وانشطارها بين الماضي والحاضر.

فهي– ذات الشاعر– تنزع إلى الخلاص من قهر الزّمان على الرغم من علمها باستحالة الرجوع إلى الشباب، فهي لم تيأس من تحقيق ذلك ولذا نراه يلجأ إلى تجميل صورة الشيب وإضفاء الهيبة عليها، فيشبّه الشيب بالشمس التي توّجت رأسه، فكلّت عيون الغانيات عن رؤيتها. إنّه يعمد إلى المقابلة بين الماضي والحاضر، بين الشباب والمشيب، ليكشف عن المفارقة ويعمق التجربة، وينمي دلالة الاغتراب الزّماني والتوتر والصراع الذي تعيشه ذاته بين الماضي والحاضر، فهو في هذه الأبيات يعمد إلى وضع الحاضر مقابل الماضي وإن كان يتحدث عن الحاضر من خلال

[21] **ـد. فاطمة محجوب، قضية الزّمن في الشعر العربي– الشباب والمشيب.(القاهرة: دار المعارف، د.ط، 1980)8.**

الماضي. وإذا كانت هذه المقابلة بين الماضي والحاضر، تبرز معاناة ابن درّاج التي تكمن في صراعه مع الزّمان، بين الرّغبة في أن يعود شاباً يتمتع بالقوة والانطلاق، وعجزه عن تحقيق ذلك وبالتالي تتعقد حالته النفسية، فإنّها– أي المقابلة– تؤكد دائماً انتصار الزّمان الماضي وسيطرته سيطرة كلية على مخيلة الشاعر ونفسيته. ابن درّاج يتشوق إلى تلك المرحلة الزاهية من حياته حيث تمتّع بالحياة، فيبلغ تحياته إلى ذلك الماضي الجميل ويتمنّى عودته، ويشكو الشيب الذي بدأ يغزو رأسه وينقله إلى حياة أخرى مغايرة.

ولابدّ من الإشارة إلى غربة ابن درّاج الزّمانية، أي غربته في زمن الحاضر (الشيخوخة)، وحنينه إلى الزّمان الماضي (الشباب)، فقد أحسّ بقوة التغيير التي مارسها عليه الزّمان الخارجي وجعل نفسه تغترب عن نفسها من جهة، وعن الزّمن الحاضر من جهة أخرى، دون إغفال إحساس الذّات بالزّمن كنسبة ذاتية لا تخضع للقياس المحدد بالساعة من جهة أخرى، هذا الزّمن النفسي الداخلي الذي يمرّ أحياناً بسرعة وأحياناً ببطء. إنّه الزّمان الإنساني الذي يمكن أن ندرج تحته زمان الاغتراب (فنحن تارة نعي في عمق كل ثانية تدق، وطوراً يبدو علينا النسيان التام أو اللاوعي بمرور الزّمان)[22] .

الخاتمة :

ويمكننا القول: إنّ خطاب الغربة والحنين عند ابن درّاج يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمكان والزّمان، ويعكس رؤيته لهما، حيث كان رفضه للواقع المكاني والواقع الزّماني الراهنين وحلمه باستعادة المكان الأول (قرطبة) والزّمان الماضي (الصبا والشباب) أهم ما يشكّل هذه الرؤية للعالم. وقد اعتمد ابن درّاج في تشكيل هذه الرؤية وفي تعميق دلالة الغربة، على المقابلة بين الماضي /الحاضر أو الحلم / الواقع، فكان يقابل بين ماضي المكان وحاضر المكان، وماضي الزّمان وحاضر الزّمان، سواء أكان ذلك في خطابات الغربة المكانية أم خطابات الغربة الزّمانية، واعتمد أيضاً على تقنية الحلم والذكرى في الخطابين معاً.

كما نلاحظ أنّ ابن درّاج في خطاب الغربة المكانية، من جهة أخرى، ينفر من المكان الواقعي أو مكان الغربة وينزع دوماً نحو المكان الذاكرة وهو مكان الألفة (قرطبة)، أما خطاب الغربة الزّمانية فقد بدت فيه الذّات الشاعرة مثقلة بهموم الغربة النفسية الناجمة عن الشيخوخة، وقد عبّرت هذه الذات عن رفضها للواقع الزّماني الحاضر وحنينها إلى الزّمن الماضي / زمن الصبا والشباب واستذكاره بكل ما يميز هذا الزّمان من القوة والفتوة واللهو وغيرها من الأمور التي افتقدها في زمن شيخوخته فحنّ إليها، وعمد إلى طمس حاضره / الشيب، وتحويله إلى ماضٍ جميل لتحدي سلطة الزّمان ومخالفته في سيرورته ونسقيته، وهي التحويل من الشباب إلى المشيب.

[22] -هانز ميرهوف، الزّمن في الأدب، تر: أسعد رزوق، مراجعة العوضي وكيل. (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، د.ط، 1972)18.

المصادر والمراجع :

1- إبراهيم، زكريا، *مشكلة الإنسان*، القاهرة: مكتبة مصر، ط1، 1959 م.
2- ابن منظور الإغريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، *لسان العرب*، بيروت: دار صادر، بيروت، ط3 ، 2000 م.
3- أرسلان، الأمير شكيب، *الحلل الأندلسية في الأخبار والآثار الأندلسية*، مصر: المطبعة الرحمانية، ط1، 1936 م.
4 – باشلار، غاستون، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ط2، 1984 م.
5 – بحراوي، حسن، *بنية الشكل الروائي*، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط2، 2009 م.
6- جنداري، د. إبراهيم، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط1 ، 2001 م.
7- الحاوي، إيليا، *شفيق المعلوف شاعر عبقرة*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1978 م.
8- *الخشروم، عبد الرزاق، الغربة في الشعر الجاهلي، دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. ط، 1998 م.*
9- سد، نور الدين، *دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي*، الجزائر: المطبوعات الجامعية، د.ط، 2008 م.
10- طحطح، د. فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 1993م .
11- عليمات، د. يوسف، *جماليات التحليل الثقافي*، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2004 م.
12- قاسم، سيزا أحمد، *بناء الرواية*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1984 م.
13- القسطلي، ابن درّاج، *ديوان ابن درّاج القسطلي*، تح: د. محمود علي مكي، دمشق، منشورات المكتب الإسلامي، ط1 ، 1961 م.
14- مجموعة مؤلفين، *المعجم الفلسفي المختصر*، تر: توفيق سلوم، موسكو: دار التقدم، ط1، 1986 م.
15- محجوب، د. فاطمة، *قضية الزّمن في الشعر العربي- الشباب والمشيب*، القاهرة: دار المعارف، ط 1، د.ط، 1980 م.
16- مراد، يوسف، *مبادئ علم النفس العام*، القاهرة: دار المعارف، ط 1، 1998 م.
17- المناصرة، عز الدين، *شاعرية التاريخ والأمكنة*، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ط1، 2000 م .
18- ميرهوف، هانز، *الزّمن في الأدب*، تر: أسعد رزوق، مراجعة أسعد العوضي وكيل، القاهرة: مؤسسة سجل العرب، د. ط، 1972 م .